صلوات فكر

فى محاريب الطبيعة

للأستاذ عبد المنعم خلاف

مع العالم الأكبر

لنا نحن الآدميين عالمٌ صغير ، هو الأرض . شُغِلنا به وبصَغاراته عن العالم الأكبر وغاياته ، بل إن لأكثرنا عالماً لا يعدو أن يكون بيتَه أو حجرته أو حقله أو وظيفته أو دينارَه أو كأسه أو بطنه ، إلى آخر هذه التفاهات .

وقد مضينا نقطع العمر هكذا دائرين على هذه الصغارات كما يدور الذباب على القاذورات والمُتفونات ... وكأنه لا يعنينا من شأن هذا العالم الأكبر الذى نرى معالمه العظيمة فى السماء تضيء لنا ، وتنادى عيوننا بنورها إلى النور الأكبر الذى يضيء ذلك العالم ، ما نراه ولاما لا نراه ، لنتجه إليه بآمالنا وأفكارنا ومساعينا ، ولتتسع سماحة نفوسنا باتساع عالمنا الذى يشغل بالنا ؛ فإن الذى يتجه إلى الكثير ويُعْنَى بالعظيم ، قليلا ما يخاصم على القليل والحقير . وإن السر فى سماحة النفس التى شغلتها السماء فلم تُخْلِد إلى الأرض ، هو هذا الاتجاه إلى مفاتح الرحمة وكنوز الثراء وخزائن النور الأعلى !

لهم عذرهم أولئك الذين مضوا قبل التاريخ ، وقبل معرفة جدود الأرض وضآلتها ومركزها الصغير فى الكون ، أن تشغلهم أنفسهم أو ديارهم الضيقة ، أو جزرهم المنثورة فى محيطٍ مائِيّ ، أو واحتُهم الضالة فى بيداء ، وأن يحسبوا أن العالم ضيق لضيق ما يعرفون ...

ولكن ، لا عذر لأبناء هذا الزمان الذين يتلقى صِغارهم وناشئوهم كثيراً من حقائق الكون وأوضاع الأرض وأخبار الأمم مما لم يُيسَّر مُعشر معتاره لفلاسفة تلك الأزمنة التى خلَت وبادت !

* * *

كما كان يشير الرُّوَّاد الأولون بأيديهم صَوْبَ الدروب والبقاع المجهولة التى كشفوها ورادوها ، ينبغى أن يشير الآن رواد الحياة والعلوم للناس إلى الطريق الذى يجب أن يسيروا فيه وحده إلى حقائق الوجود الحالى وعلومه ومعارفه ... ينبغى أن يشير المعلمون والآباء للأطفال إلى ذلك الطريق ... ويفتحوا مداركهم على فجاج الحياة ومناجم الأسرار ، وأن يُشعروهم رهبة الرحلة فى هذا الكون !

ينبغى أن يقول الوالد الجدى أو الروحى لولده عند ما تتفتح مداركه ويستطيع التمييز : يا بنى إنى جئت إلى الحياة مثلك . وقبلى جاء أبى وأبو أبى ، فى حبل نَسْلٍ طويل يتصل بآدم أبى البشر... لترى هنا ما تراه أنت اليوم بعيونك الجديدة . وقد أصاب عينى الكَلالُ من كثرة التحديق إلى مشاعل النور التى تراها فوق ... ولم يشغلنى عنها شاغل من ظلمات الأرض . وحسبُك نظرةٌ بالليل الرهيب لترى أن عينيك غريبتان فى هذه الظلمات ! لأنها لم تُصنع لها غُربةَ روحك فى كثافة جسمك التى لم تخلق لها ...

يا بنى إن عينيك مخلوقتان لنور الشمس والنجوم التى تعرفها فى السماء ... وكذلك روحك مخلوقة لنور الكون وروحه . ولا تستطيع حياةَ الظلام الأرضى ... فارفع عينيك إلى منابع نورها ، وارفع روحك إلى منبع نورها ... يا بنى إننا أُلقِينا فى ظلمات هذه الأرض لغرض عظيم خفىٍّ من أغراض واهب الحياة . ثم لا نلبث أن نُرفع ونعود إلى ذلك العالم الذى ألقينا منه .

يا بنى فكر دائماً فى أن تتخذ سُلَّماً تعرج عليه روحك إلى هذا العالم ، ولا تُخْلِدْ إلى الأرض إخلاد حشراتها وحيواناتها الدنيئة . ولا تُدِم النظر إلى تفاهاتها وحقاراتها وضيقها ، لئلا

يضيق نظرك وخلقك وفكرك ، وتَغْشَى عيناك من رؤية النور ، وهو ما يجب أن تبصر به ... شتان بين عقلين أحدهما يحدِّقُ في النور والثاني يأبى أن يرفع عينه إليه .

الأول أوسع وأعلم وأروح ... والثاني أضيق وأجهل وأكثف ... لأنه مُطاردٌ ملهوف خائف من فوات فرصة حياة الظلام التي لم يرغبها إلى غير رجعة ، فهو يملأ منها كل أوعيته ، وكلما امتلأ غاص حتى لا يبقى منه على سطحها إلا ما يبقى من فقّاعة على سطح وحل وحمأ مسنون !

على عتبة من عتبات الكون!

إنما مثل الله ، جل جلاله ، مع أحدنا حين أخرجه من العدم إلى الوجود ، وأدخله هذه الأرض ليريه من عجائب ملكوته ما يثير به شهوته وتطلُّعه للخلود ، وحبَّه للمتاع بملكوته وعجائب صنعه ، كمثل غنيٍّ أخذ بفقير جائع عارٍ إلى قصره الفاخر ، وأوقفه على عتبته وفتح له الباب ، فرأى من موقفه هذا ما أثار شهوته للطعام والمتاع والسكنى في هذا البيت ... ولاشك أنه سيسأل هذا الغني ويتمنى عليه أن يمنحه دخول هذا القصر والخلود فيه والمتاعَ بما به من بهجة وتماثيلَ وثراء ... ولا شك أن موقفه الصحيح ينبغي ألا يكون شغل النفس بعتبة المنزل ، ورؤية واجهته وحدها بدون تطلع إلى ما وراءها ...

كذلك هذه الأرض إنما هي عتبة من عتبات ملكوت الله الذي لا نرى إلا جزءاً ضئيلا من سطحه في السماء ... ينبغي لنا ألا نُخْلِدَ إليها وننسى ما وراءها . بل ينبغي أن نسأل الله مالك هذا الملكوت الأعظم ، ونُلِحَّ في السؤال أن يدخلنا إلى واسع ملكوته ورحاب رحمته وسُبُحات جماله وأفانين صنعه ...

ذلك هو الموقف المعقول إن كنا ذوي طبع سليم وعقل غير مصروف ومزاج غير مَؤُوف !

رور !

رأيت دوداً حقيراً شنيعاً يرعى في جيفة كلب بشراهة ، فتذكرت مصيري وفزعت ..

ثم رأيت فكري يقول في رنة أسف وألم وتحد : أنت يا هذا الدود تأكلني وتمزق أوصالي وتغيبني في جوفك ... ثم تفنى أنت أيضاً . !

لي الله ! لك الله ياجسدي وأعضائي التي تجمعت لأكون ! لكما الله يا قلبي ويامخي ! يا موضعي الأسرار الرهيبة مني ! والله لما اختزنتماه من معاني الحق والجمال والحب والخير والإيمان إن كان مصيرها كمصيركما !

هبوا أحشائي السفلى ومواضع القذر في جسمي تفنى هذا الفناء وتصير إلى هذا المصير الرهيب ؛ ولكن مابال رأسي وقلبي يفنيان مع هذه الأنجاس والأقذار . ! مابال الرأس يساوي القدم واللسان يساوي الظفر ! !

أنا أفنى هذا الفناء مع الكلاب ! !

- كلا ! لستُ هذه الأوصال ... ولكنها دوابيَّ وآلاتي أركبها وأعمل بها ، تفنى وتتجدد في حياتي وتهدم وتتخرب بعد مماتي .. أنا الساكن المستخفي في جسمي ولا أراه ! والذي يحدثني الآن ويحاكمني ويدير هذه الآلات ويوجهها .. ذلك كائن آخر له شأن آخر ...

إنه هو الذي يتخلى عن تلك الأوصال . وسواء بعده رأس وقدم ، وعين وظفر ؛ فإنها آلاته ترساً أو مساراً ، وجهاً أو قفا ، لابد له منها ليعلم بها ماهنا ويستكمل شئونه .

إنه هو الذي ينظر مصير أوصالي في جوف الأرض ويتعجب من شأنها معه الآن ، وشأنها بعد أن يتخلى عنها ...

إنه هو الذي يذكرها الآن بمصيرها اتَّجِدَّ وتعمل وتأخذ نصيبها من الاحساس والشعور والفكر والعلم والقوة والنزوع قبل ألا تستطيع .

إنه راصد يقظ دائماً وراء الحس والفكر ، يقول هذا حسن وهذا قبيح ، وهذا حق وهذا باطل ...

إنه من عالم العَـحْـو المُطْـلق ، والإدراك الكُـلِّى ، والخلود السَّرمَـدى ، والانطلاق الحر ، والجمال الدائم . لا يفزع من ذلك المصير الحقير لنَـمْله البالية التى بها يسير فى أوعار الأرض وأشواكها ومجهولاتها ومهُـولاتها ، بعد أن يقضى منها أوْطارَه ..!

إن هـذه الأوصال طين مُرَوَّق ، لبسته روح الحياة فنعت عفونته وظلمته ، وقلت كثافته ... ثم لا يلبث إذا فارقته أسرار الحياة أن يختمر ويتعفن ويتحلل ، شأنه شأن كل نوع من طين الأرض ، يوقد عليه فى حرارة الحياة ... فلا بأس أن يذهب روح الحياة ويتركه يرتد إلى ما كان ...

ومن الطين وروح الحيوان تولد كائن آخر هو الإنسان الذى يستعلى على ذلك المصير الفانى ، ويتعلق بالفكر العالى ، والجمال السَّنِى ، والكمال السَّرِىّ ... هو الذى فزع حين رأى جيفة الكلب ، وأبى حكمه ويقينه أن يكون مصيرُه مصير روح هذا الكلب ، وإن سلَّم لقميصه المادى أن يُجَـيَّف كما جَـيَّفت جثة الكلب ...

عطر الخلود ورياه :

خَـبَرتُ الحب ، فلم أره من أشياء هذا العالم الفانى ... وإنما هو من الخالد ... هو عطر الخلود وريّاه ، يهُـبُّ حين يتماسّ قلب بقلب فلا يشعر به غيرهما ...

وإذا صح أن الحب فى أكثر حالاته البشرية هو عاطفة ممهدة للزواج والشعور بالجنس ، أو أنه خُـدعة لتحقيق مآرب من امتداد النوع ... وإذا صح أن ثمرة الغريزة هى الولد ، والنسل هو امتداد الشخصية الأبوية ، وأنه صورة من صور الخلود الذى تتعلق به وتتمناه كل ذات لنفسها ... إذاً فقد صح قولى ، إن الحب هو صبوة النفس إلى عالم الخلد ...

ويحس الفرد حين يصرعه الحب ، ويغدو قلبه فى يد هذا الطفل العابث الدائم الطفولة ، أنه يَتهافَتُ على موارد الحياة ، ويَهفُـو قلبه إلى جميع مصادر الأُنس والبهجة والتفتُّح والخفة والطيش إلى ما تَعزِف النفس عنه حين لا تكون فى قبضة ذلك الطفل . وهذا يؤيد عندى أن الحب هو مفتاح الشعور العميق بالحياة ، وأكبر دافع إلى خوض غمارها وسُبر شعابها .

وليس يكون تصوير الحب أصحَّ وأوفق من تصوير قدماء اليونان إياه ، حين صوروه طفلا . فالشعور بالطفولة وارتداد النفس اليها بين المحبين ، هو أخص صفاته وسماته ؛ إذ هو يَرُدُّ الشيخ والكهل إلى حب الحياة والتجمل والتزين لها ، كحب الأطفال وتجملهم ...

ولا غرابة مع هذا أن يكون الحب مستشاراً سيء الرأى ... لأن طفولته تمنعه من سداد الأحكام !

عبد المنعم خلاف

صديقى القارئ

الكتب الآتية

ضرورية لثقافة فكرك ولسانك

وحى الرسالة (الثانى): للأستاذ أحمد حسن الزيات ٤٠

آلام فرتر : ٤٠

رفائيل : ٤٠

من الأدب الفرنسى: ٣٠

اطلبها من إدارة « الرسالة »

ومن المكاتب الشهيرة